

لأن الترجمة يغلب أن تكون قصة حياة، وأما هذه فأحرى بها أن تسمى صورة حياته، ولأن تكون ترجمة ابن الرومي صورةً خري من أن تكون قصة؛ قصة نادرة بني قصص الواقع أو الخيال، ولكننا إذا نظرنا في ديوانه وجدنا مرآة صادقة، ووجدنا في امرأته صورة ناطقة لا نظري لها فيما نعلم من دواوين الشعراء، تستحق من أجلها أن يكتب فيها كتاب. إن مزايا الشعر كثرة تتفرق بين الشعراء، ويتفرق الإعجاب بها بين القراء، يحرم الشاعر إحداها أو أكثرها وهو بعد شاعر لا غبار عليه؛ الوجه رائع جميل، ذاك، ولا تشابه بينهما في غري الحلاوة؛ أختها، وليس هناك إلا جمال وكذلك الشعر، طراز، والذي يعجبنا من هذين زيدون، والذي يستحق به كل واحد منهم صفة الشاعرية، غري الذي يستحقها به البقية؛ فقد تفرقت مزايا الشعر كما قلنا أيما تفرق، والتعريف. غري أن املزية التي لا غنى عنها، مزية واحدة، وتلك هي الطبيعة الفنية. نتعمد أن نقول: إنها تسمى باسم واحد؛ هذه التسمية. فالطبيعة الفنية هي الطبيعة التي بها يقظة بينة للإحساس بجوانب الحياة المختلفة، أو كأنها معجم كامل من المصطلحات، أليست جوانب الحياة علمياً لا حد لها في العدد ولا في الصفة؟ ثم أليست أنواع التيقظ لتلك الجوانب أشتاتاً وأخلاقاً لا تجتمع في حصر حاصر؛ بلى! فمن املتقظ لجوانب الحياة من هو عميق الشعور بها، أو مستقيمه أو منحرفه، إلى غري ذلك من أنواع الشعور ودرجاته، فالذي تجمعه كلمة اليقظة هنيئة لا تلبث أو صاف اليقظة أن تفرقه كل مفرق، املعني، وتقريب مقاده للتعريف والتوضيح؛ نعم! وسبيل ذلك غري عسري، فنحن نقول موجزين: إن الطبيعة الفنية هي تلك حياته هو موضوع شعره، باطنية لنفسه، يخفي فيها ذكر الأماكن والأزمان، مما تتألف منه حياة الإنسان، استطاعة واختياراً، أو يقل، كما يلتقي الصديقان أحياناً بعد الحني على كره واضطرار، املواعيد، أو قصري، وتفارقه، وينقل عنها ما تقول، وهو — إذا فارقته — فرد من هذا المأل الذي لا يوحى إليه، ولا يكشف عنه الحجاب فمن عرف ابن الرومي الشاعر؛ ولم ينقص منه إلا الفضول. والغريب مع هذا أن ابن الرومي الشاعر هو ابن الرومي الذي لم وإن عرفت له مزايا ونالت حسنات له حقاً من الإعجاب. ليس من الصدق للتاريخ أن يقال: إن ابن الرومي كان خاملاً في زمانه أو بعد زمانه، بهذا املعني الشائع من الخمول الذي يراد به سقوط املكانة الأدبية ونسيان الأثر بني املتأدبني، فلعله إذا قيس إلى الشعراء الهجّ أنني خليق أن يعد سعيد الحظ موفور الجزاء؛ وذهب شعر دعبل إلا أقله، فلم يذهب منه إلا أقله! وهذه محاباة من الشهرة لم يرزقها في العربية شاعر هجاء، أو لم كر في كل كتاب متداول من كتب الأدب، وحفظت له مختارات كثيرة لأنه ذاك عليه لا إصغاراً لشأنه، تعمدوا ذلك حنقاً تأخر لأن ديوانه أطول ديوان محفوظ في اللغة العربية من جهة، ولأن وربما كان الإقذاع في الهجاء سبباً ثالثاً مضافاً إلى ذينك السببني. الشائع من الخمول، ولكنه مع هذا كان خاملاً، وكان خموله أظلم خمول يصاب به الأدباء؛ ولكنه يخفي أجمل فضائله وأكبر مزاياه. واملتأدبني. والتوليد الغريب، ولا يترك والناقص فيه هو املهم، وهو الأجدر بالتنويه؛ كله مصحوباً بالطبيعة الحية، والإحساس البالغ، والذخيرة النفسية، والافتنان فيه؛ إن كثرياً من النظامني ليغوصون على املعاني النادرة ليستخرجوا لنا أصدافاً أو لآلى رخيصة كالآلى املعتز وابن خفاجة وإخوان هذا الطراز، إن لم يكن صادق التعبير، مطبوع التمثيل والتصوير. وأرقام وحروف، ولكنها برسومها ونقوشها وأرقامها وحروفها لا تساوي درهما إن لم وهو الثروة الشعرية التي يقاس بها سراة الكلام، فعلامة لا أكثر ولا أقل، وقد تغني عنها علامة أخرى برقم ساذج وتوقع نعم، املطلوب في لبابه، فكل معانيه وتوليداته ونوادره ولا استغراق؛ فقد أدى رسالته وأبلغ في أدائها أكمل بلاغ، وهذه هي الرسالة املقصودة، وهذه هي الطبيعة الفنية. أما املعاني والتوليدات فهي وسائل إلى غاية لا قيمة لها إلا فيما تؤديه وتنتهي إليه، ومن أداها إليك بكلام لا أغراب فيه ولا توليد. غواص على املعاني، ولكننا لو فقد توليداته ومعانيه، ولا نحذف منه عناصر الشاعرية والطبيعة والشاعر في جيده ورديته، وليس الشعر عنده لباساً يليسه للزينة في مواسم الأيام، كلا! بل هو إهابه املوصول بعروق جسمه، املنسوج من والإبانة عن صحته وسقمه، بل ربما كان بعض رديته أدل عليه من بعض جيده، لأن موضوع فنه هو موضوع حياته، واملرء يحيا في أحسن أوقاته، ويحيا في أسوأ أوقاته، وهو الجانب الذي